جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كلّية الآداب والحضارة الإسلامية

الملتقى الوطني الأول حول:

مظاهر الانفتاح الفكري والأدبي في إسهامات الأمير عبد القادر الجزائري

23 رجب 1445هـ الموافق لـ 04 فيفري 2024م

الاسم واللقب: فتيحة عاشوري

اسم المؤسسة: جامعة الشاذلي بن جديد/ الطارف

الدرجة/ التخصص: أستاذ محاضر-أ- /أدب عالمي

البريد الالكتروني: afatiha41@yahoo.fr

محور المداخلة: الوعي الثوري في فكر الأمير عبد القادر ومفاهيم التغيير الحضاري.

عنوان المداخلة: عبقرية الأمير عبد القادر و الوعي الثوري

ملخص المداخلة:

يُساوِق الحديث عن الأمير عبد القادر الحديثَ عن قيام أركان الدولة الجزائرية الحديثة في مختلف جوانبها السّياسية والعسكرية والاقتصادية، وأبعادها الثقافية والفكرية والحضارية التي كانت من أهمّ روافد العالم روحياً، ثقافياً وفكرياً في نشر مبادئ التسامح، وبعث فكر إنساني قائم على وحدة الجنس البشري، واختلاف الثقافات والحضارات واحترام حق الآخر في الاختلاف، أبعادٌ تجمع بين المكونات الشّخصية المستقلّة والقيم العالمية.

ولعلّ المتأمّل في وقائع هذه المقوّمات المادية والرّوحية التي اتّسمت بها شخصية الأمير جعلت منه عبقرية فذّة، نافذة، عالمة، عارفة وخبيرة بدروب الحياة ومسالكها الوعرة، نابعة من حنكة قيادية ووعي ثوري

خلاّق، متأتٍ من إرادة قوة صقلتها البصيرة الجيوسياسية والعسكرية، والرؤية الاستشرافية الواضحة للتحرر والاستقلال التي تستقي معالمها من مشارب ودعامات دينية، جعلت منه مثالاً بارزاً للتصدّي للاستدمار والظلم، ورمزاً للنضال والعنفوان في تاريخ الجزائر والعالم.

من هنا تقف ورقتنا البحثية للحفر في منابع هذه العبقرية المتأتية من وعي ثوري وإرادة قوة روحية دوخّت جنرالات فرنسا والعالم، وظلّت شاهداً عالمياً راسخاً، ومعلماً تاريخياً، عسكرياً، سياسياً، ثقافياً، حضارياً، فكرياً وأدبياً خطّه هو نفسه في كتاباته وأشعاره التي رسمت فلسفة حياته.

The focus of the intervention: Revolutionary awareness in the thought of Prince Abdul Qadir and the concepts of civilizational change.

Title: The Genius of Emir Abdelkader: Revolutionary Consciousness and the Will of Power.

Summary of the intervention:

Talking about Emir Abdelkader is consistent with talking about the establishment of the pillars of the modern Algerian state in its various political, military and economic aspects, and its cultural, intellectual and civilizational dimensions, which were one of the most important tributaries of the world spiritually, culturally and intellectually in spreading the principles of tolerance, and resurrecting a human thought based on the unity of the human race, the difference of cultures and civilizations and respect the right of the other to differ, dimensions that combine independent personal components and universal values.

Perhaps the contemplation of the facts of these material and spiritual elements that characterized the personality of the Emir made him a unique genius, a scientist, a knower and an expert in the paths of life and its rugged routes, stemming from leadership skill and creative revolutionary awareness, derived from the will of a power refined by geopolitical and military insight, and a clear forward-looking vision of liberation and independence, which draws its features from religious stripes and pillars, making him a prominent example to confront colonialism and injustice, and a symbol of struggle and violence in the history of Algeria and the world.

Our research paper stands to dig into the sources of this genius derived from revolutionary awareness and the will of spiritual power that stunned the Generals of France and the world, and remained a solid global witness, and a historical, military, political, cultural, civilizational, intellectual and literary landmark written by himself in his writings and poems that drew the philosophy of his life.

نص المداخلة:

إنّ الحديث عن الأمير عبد القادر(1883-1808) يقتضي الحفر في جوانب شخصيته والإلمام بها من كلّ طرف، ذلك أنّها شخصية تنأى عن أحادية القيمة والوجود، مشدودة إلى التعدّد من التكوين المرجعي، المتجاوزة حدود الزمكان، لتفرض نفسها وتضع بصمتها على المستوى العالمي، وذلك بفضل عبقريته القيادية وحنكته الدبلوماسية ومقدرته الفكرية وفحولته الشّعرية وحكمته في إدارة المواقف السياسية والعسكرية، وتفعيل مبدأ الحوار بين الحضارات والانفتاح على الآخر وعلى القيم الإنسانية العالمية، حامل لفكر استشرافي يسعى لتقارب الشعوب بضرورة الإيمان بمبدأ الاختلاف وحق الآخر في فيه، كما أنّه من جهة أخرى متمسك برسالة شعبه وبأهداف النبيلة وطموحاته في السعي إلى المطالبة بالحرية من محتل غاشم ربض على قلب كل وطني ردحا من الزمن، لذلك -أيضا- فهو يمثل نموذجا للفكر الثوري التحرّري، المؤمن بأنّ التحرّر منطلقه لترسيخ مبدأ التعلّم والأخذ من كلّ علم بطرف لمواجهة خطوب العصر ومشكلاته.

من هنا أجمعت أغلب القراءات حول شخصية الأمير عبد القادر على أنّه يشكّل إرثا، سفرا ونموذجا للقوة الجامعة بين الروحي والتمثّل الصلب؛ بين الروح العربية الإسلامية وبين الرؤى والرؤية الإنسانية العالمية والتي لا يمكن أن نستشفها إلاّ من خلال استقراء مساره المقاوماتي وتتبع أساليبه في التعامل مع أحداث عصره والوعي بمشكلاته، وكذا مواقفه الدينية المتسامحة، وفلسفته في الحياة والفكر.

أولاً: عبقرية الأمير: تأملات في مركبات النشأة والتكوين

أجمع الباحثون في سيرة الأمير عبد القادر على أنّه كان شخصية متفرّدة جمعت بين **"الذكاء، والعبقرية، فتمكن في مدة قصيرة من اكتساب حظ عظيم من العلم في الفقه، والأصول وعلوم اللغة والأدب، والحديث، والمصطلح، كما حفظ قدرا كبيرا من صحيح البخاري عن ظهر قلب"[1]**، وتذكر كتب المستشرقين حياة الأمير عبد القادر في صباه، وعلى رأسهم المستشرق شارل هنري تشرشل Charles Henry Churchill (1807–1869) الذي قرأ شخصية فكرية ثقافية مبكرة غير عادية، لها من القدرات والمواهب والملكات ما أهلها لأن **"تقرأ وتكتب وهي في سن الخامسة من العمر، ثم طالبا ...حافظا للقرآن الكريم ومتمكنا من الحديث وأصول الشريعة الإسلامية، ثم معلّما يعطي دروسا للطلبة في مسجد الأسرة، أو زاويتها حيث كان يعقّب ويفسّر أصعب الآيات والشواهد"[2]**، كيف لا وقد نشأ على يد والده، أحد أشراف المنظقة، سليل النسب إلى بني هاشم وإلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فضلا عن

كونه أحد رجالات الطريقة القادرية المعروف بينهم بعلو كعبه أخلاقيا وفكريا، وفي علوم الدين والدنيا وتضلعه في مجال التصوف واللغة العربية.

ولما آنس الوالد من ابنه هذه الإرادة الثقافية المعرفية والفكرية، والإحاطة بمبادئ العلوم العربية والفقه الإسلامي، وما أوتي من مجامع الكلم، النباهة، الفطنة ومرابط القوة الفكرية ... آثر إتاحة الفرص أمامه لينهل من منابع الثقافة والفكر والأدب؛ فاطّلع الأمير على آثار أفلاطون وفيثاغورس وأرسطو في الفلسفة والمنطق **" ودرس كتابات مشاهير المؤلفين من عهود الخلافة العربية عن التاريخ القديم والحديث، واللغة، والفلك، والجغرافيا والحساب والفلك"**[3]، هذا وقد كان للأمير شغف بالفروسية ومهارة في الرماية وحمل السلاح حتى أصبح يشار إليه بالبنان بين الفرسان، كان هذا الشغف دافعا في ما بعد لأن يكون أهلا للنضال والمقاومة على جبهات متعددة؛ فإلى جانب مقاومته العسكرية والسياسية للاستدمار الفرنسي مارس الأمير مقاومة فكرية ثقافية سعى من خلالها إلى الجمع بين حدة السيف وصلابته وسلاح القلم وقوة الكلمة في محاولة منه تحقيق مشروعه الحضاري التجديدي الرامي إلى فك الحصار عن الفكر، وإتاحة الفرص على الانفتاح والإبداع والتجديد كمنطلقات أساسية للنهضة، راهن على عامل الإنسان باعتباره قوة فاعلة تقف عليها أركان الدولة ونهضتها.

لذلك تمثل روح العصر الذي نشأ فيه الأمير وما يحمله من خصائص سياسية واجتماعية وثقافية وتربوية من أهم المحطات نحو تكوين شخصيته ونبوغها وعبقريتها؛ فقد خوّل له التكوين الذي تلقّاه على يد والده، وكذا على يد معلّمه "أحمد بن طاهر قاضي مدينة أرزيو– ثمّ حرص عائلته التي درجت على رفعة العلم والعلماء والفقهاء والشيوح الذين كانوا يتوافدون على بيت والده لحضور المحاضرات الدينية التي كان يلقنها للجيل الناشئ من الطلبة الذين كانوا يأتون إليه من كل حدب وصوب – من إدراك مراكز القوة في الذات الإنسانية التي حباها الله بميزة شريفة ممثلة في العقل **"تمكن الإنسان من التعرف على العالم الخارجي، وتساعد حواسه على الاستيعاب والتصويب في معرفة الأشياء، ولن يكون الإنسان قادرا على هذه المعرفة إلاّ إذا اطلعت عليه أنوار التوفيق والهداية الربانية"**[4]، فيتمثّل الفعل الأخلاقي بوصفه قيمة دينية وجهاد نفس، وقناعة فكرية، وممارسة حاضرة بالقوة لا تتأتّى فاعليتها في غياب ملكة المعرفة ممثّلة في قوة العلم، لذلك تأكد لدى الأمير أنّ تأهيل الفرد تأهيلا دينيا يعد ضرورة ملحة استعدادا لجهاد أكبر خارج حيّز الذات، ذلك أنّ إدراكه أنّ نجاح مقاومته ضد الاستدمار الفرنسي قرين بمدى انتشار الوعي الديني والثقافي والفكري بين

مختلف فئات المجتمع الجزائري، ثمّ إنّ **"تكوين نخبة واعية بمخاطر السياسة الاستعمارية وبخاصة في الميدان في الميدان الثقافي، وقادرة على استيعاب كنه وعمق المقاومة التي لم تكن مجرّد مواجهة عسكرية وسياسية مع الاستعمار الفرنسي، بل مواجهة حضارية مع الغرب الرأسمالي الذي تشكل فرنسا أحد قواعده الهامة، وذلك بأبعادها العلمية والتقنية والعسكرية"**[5].

ومما لا شك أنّ العصر الذي نشأ فيه الأمير عبد القادر كانت الجزائر آنذاك تخضع سياسيا للحكم العثماني، **"وهي الفترة التي امتدت من 922 إلى عام 1245 هجرية الموافق لـ (1516– 1830) ميلادية، فترة هامة في تاريخ الجزائر، حيث تعرضت في مطلعها إلى الغزو الإسباني وعرفت نهايتها الاحتلال الفرنسي، ثم هي الفترة التي اكتمل في أثنائها كيان الشعب الجزائري المتميز باختيار عاصمة، ورسم حدود، ووضع قوانين إدارية، وسن أنظمة اقتصادية واجتماعية، وانتهاج علاقات سياسية متماشية مع وضع البلاد ضمن نطاق الوحدة الطبيعية"**[6]، مع باقي البلاد العربية والإسلامية الخاضعة آنذاك للإمبراطورية العثمانية التي لم تتوان في الذود عن حياضها، ورد العدوان عنها.

أمّا من الناحية الاجتماعية؛ فمن الطبيعي أنّ الإنسان ابن بيئته، اجتماعي بطبعه، يتأثر بها وبالبنيات المشكّلة لها وبالكيانات الفاعلة فيها، وكذا بمركباتها التي جبلت عليها، والأمير عبد القادر الذي ولد في عصر أوشكت الدولة العثمانية فيه على نهايتها، فإنّه تأثّر بمكونات هذا العصر وبالعلاقات الاجتماعية السائدة فيه والتي كانت تحكمها القبلية رغم تبعيته الكلّية للسلطة العثمانية، **"ثم هو مجتمع كان ينقسم إلى أشراف وغير أشراف، وكان الأشراف بدورهم ينقسمون إلى أجواد ومرابطين...وقد كانوا على خصومة دائمة"**[7]، غير أنّ السّمة البارزة على المجتمع في هذه الحقبة هو غلبة الروح القومية في نزعتها المشدودة انتماء إلى العالم الإسلامي أكثر من انشدادها إلى الانتماء الوطني.

وأمّا فكريا وثقافيا فقد ظلّ المجتمع الجزائري يعيش تخلفا رغم وجود مبادرات إصلاحية سلفية في الطرف الآخر من الوطن العربي (شبه الجزيرة العربية، وفي مصر(محمد علي))، وما حدث في الجزائر العثمانية هو تجميد للعقول وقتل للأفكار والإبداع تحت مسمى كلّ محدثة بدعة، غير أنّه من ناحية أخرى نستقرئ مجتمعا سيطرت فيه الطرق الصوفية التي حادت عن مسارها الديني، وعن الأهداف الحقيقية المنوطة بها (تقديس الأولياء والأضرحة، الخرافات الدينية، التدجيل، ادّعاء الكرامات...).

إنّ الجزائر رغم صلات الوصل التجارية والحربية (أسطولها البحري) مع بعض الدول الأوربية إلاّ أنّها منكفئة على ذاتها شأنها في ذلك شأن سائر الأقطار العربية، فقد كانت بعيدة عن التحولات الثقافية والفكرية الحاصلة في أوربا، وقد **"ترتب عن هذه العزلة عدم انتشار اللغات الأجنبية فيها إلى جانب اللغة العربية واللغة التركية، التي كان العمل يجري بها في الإدارة"**[8]، وما زاد الأمر سوءا هو سيادة الطرق الصوفية التي تفتقر إلى منهج ديني قويم موحّد وإلى منطق علمي وعملي في الممارسة والتلقين، **"ومع ذلك فبالرغم مما لحق الجزائر في عهد العثمانيين الذي نشأ في أحضانه الأمير عبد القادر، وتأثر بجوّه العام، فكريا، وثقافيا، ودينيا، من تخلّف وانحطاط، فقد ظل للإسلام تأثير في النفوس، وفي السلوك، وظل للأعراف والقيم العربية تأثيرها في التصرفات والعادات"**[9]، ولعلّ من مظاهر هذا الإيمان الحرص الشديد على العلم والتعلّم والاحتفاء بالقرآن الكريم منهجا راسخا في الالمام بمفاتيح المعرفة للولوج لعالمي القراءة والكتابة.

وإذا عرجنا إلى بيئة الأمير التعليمية نلمح اقتصار التعليم فيها على العناية بالعلوم الدينية واللّغوية كحفظ القرآن الكريم وإجادة القراءة والكتابة، وهو في الغالب تعليم غير ممنهج، متروك للآباء وللمؤسسات الدينية، فالعثمانيون لم تكن لهم في الجزائر سياسة تعليمية واضحة، هذا وقد شمل التعليم مراحل ثلاثة: (ابتدائية، ثانوية، عالية)، تتداخل أدوارها بعضها ببعض، وقد كان المسجد المنارة العلمية الشامخة التي جمعت بين أن يكون مكانا للصلاة (مصلى) ومدرسة ومكتبة؛ **"فالتعليم في المساجد كان يجمع في رحابه في بعض الأحيان بين مراحل التعليم الثلاثة .. ماعدا الجوامع الكبرى كالأزهر، والزيتونة، والقرويين، وما يضارعها فهي وحدها فقط التي تمخضت للتعليمين الثانوي والعالي"**[10]، غير أنّه وبعد دخول الاحتلال الفرنسي أجهز على معظمها، ولكن ظلت القراءة والكتابة راسخة في الذهن، ذلك أنّ التعليم كان يعتمد على الذاكرة والحفظ وكان من أهم مزاياه أنّ نسبة الأمية تكاد تنعدم في ذلك العصر، وهذا ما ساعد الأمير بعد ذلك من استكمال مشروعه الحضاري.

ثانيا: الوعي الثوري وفلسفة المقاومة

لما كانت شروط النهضة الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية والعسكرية تتوقف على النهوض بالثقافة والفكر وعلى التعليم والتعلم، الرهان الكفيل للخروج من وبال الغفلة، فقد سخّر الأمير أثناء إمارته الجزائر كافة الوسائل والسبل لخوض معركة بناء الإنسان، ذلك أنّ بناء الدولة ونجاح المعركة الثورية التحريرية لا يتحقق إلاّ ببناء الإنسان، من هنا كان حرصه كلّ الحرص على نشر الوعي الثقافي والقومي والأخلاقي بين مختلف فئات

المجتمع، لذلك فإنّ **"أعظم مزية نعطيها له في هذا المضمار هو جمعه بين الثورة المسلحة والكفاح (النظري)، حيث استطاع وسط تلك الأنهار المتدفقة بسيول من الدماء، وأمواج من الانتفاضات المتكررة أن ينشئ جوا من الثقافة والأدب، يكاد لا يكون له نظير في ذلك الوقت"**[11]، كيف لا وهو العارف، العالم بضروب الحياة، ومدارك العقل ، ومدارج العرفان، وخطوب المعارك ومعاقل النزال، وقد صدق قوله عندما قال مفتخراً شعراَ:

ومن عجبٍ تهابُ الأسدُ بطشي ويمنعنـــــي غـــزالٌ عـــــن مـــــرادي

فإن شئتَ علماً تلقني خيرُ عالمٍ وفي الروعِ أخباري –غدت– توهنُ القوى[12]

1. المقاومة السياسية والعسكرية:

لا تختلف أسس مشروع الأمير عبد القادر في بناء دولة جزائرية عصرية عن مشروع مالك بن نبي الذي أسس لنهضة ثقافية وحضارية، إذ أن منطلق كل منها يقوم على فكرة واحدة وهي أن الإصلاح والتجديد الحضاري لا يتحقق إلاّ بتخليص الإنسان ومقاومته لرواسب القابلية للاستعمار بشتى أشكاله، بإعداده وفق رؤية إسلامية، من هنا أقام الأمير مشروع دولته الهيكلي وفق خطة تنظيمية محكمة، قوامها العدل والنظام وتوحيد الشعب الجزائري على راية واحدة وهدف أوحد، وهو**"جعل عرب الجزائر شعبا واحدا، ودعوتهم للمحافظة التامة على دينهم وبعث الروح الوطنية فيهم، وإيقاظ كل قدراتهم الهامدة... ثم تتويج ذلك بطابع الحضارة الأوروبية"**[13]؛ فبعد أن وضع قوانين تحكم نظام الدولة، وصك النقود باسمها وأنشأ معامل للأسلحة والألبسة، قام **"بتعبئة جيوشه بشكل منظم، وعيّن رجال الدولة، وعيّن وزيرا(محمد العريني) وكاتبا(ابن عمه أحمد بن علي)، ورتب مجلسا للشورى من أحد عشر عضواً، ورئيسهم قاضي القضاة أحمد بن الهاشمي.. ولما رأت فرنسا ذلك وقيامه بأمر الدين والجهاد والوطن هابته وحسبت له حسابا"**[14]، واضطرت أن تعقد معه معاهدة صلح أقرت له بموجبها بسيادته على مقاطعة وهران، هنا برزت رؤية الأمير السياسية في تسيير أجهزة الدولة اجتماعيا واقتصاديا وعسكريا؛ انبنت على تمكينه من إرساء نظام اقتصادي جديد يتوافق ومتطلبات المرحلة الجديدة اجتماعيا وعسكريا، **فظهر التوجه الوطني لدى الأمير خاصة في عملية تحويل المجتمع الجزائري من شكل نظام قبلي إلى نظام الدولة الحديثة"**[15].

وبروحه السمحة المحبة للوطن عشق طبيعة بلاده وأحب مظاهر الحياة فيها، ورسمها في رائيته المشهورة فلا غرو أن يتّخذ من مسالكها ومساربها ودروبها منافذ قتال، استفاد من مواقعها الاستراتيجية في إطار حركة شعبية، سياسية وعسكرية لمقارعة المحتل من موقع القائد المتبصر المحنك:

سل البيد والمفاوز عني والمفاوز والربا وسهلا وحزنا، كـــم طويت بترحـال[16]

وبإرادة فولاذية وصمود مستميت، استطاع من خلال عبقريته الحربية وخبرته العسكرية ودهائه السياسي أن يدوّخ جنرالات فرنسا والعالم، ويتبيّن ذلك من خلال معاهداته ورسائله إلى جنرالات فرنسا، وسادة وحكام بعض الدول والمقاطعات، فهو القائل رأيه في الحرب لخلفائه: **"لا تحاربوا الفرنسيين في جمع كبير، بل الاقتصار على مضايقتهم ومطاردة اجنحتهم، وقطع خطوط مواصلاتهم والوقوع على معداتهم ووسائل نقلهم، والتراجع الخاذع، ونصب الكمائن، والهجوم المفاجئ لإذاعة الارتباك والحيرة والدهشة فيهم"**[17]، وبهكذا استراتيجيته نظامية في الحرب مفصلة ومدروسة استطاع أن يفرض نفسه شخصية حربية عنيدة عتيدة ، وفي مناسبة أخرى أعلن الأمير للجنرال بيجو بعضا من أساليبه وعبقريته في القتال قائلا: **"والحروب قد تربينا عليها وتغذينا بلبانها، فنحن أهلها من المهد إلى اللحد، وحروبنا كما علمتم لا نرجع فيها إلى قانون يحصرنا بل نحن مخيرون، مطلقون نصرفها كيف شئنا، وأما أنتم فقد بذلتم أموالكم، وأفنيتم شبابكم في تعلم طرقها القولية، وعند اشتباك الصفوف، تعالجكم عن مراجعتها الرماح والسيوف"**[18].

وتظهر عبقرية الأمير الدبلوماسية ودهئه السياسي من خلال علاقاته الخارجية واتصالاته مع الدول العربية الإسلامية (تونس، المغرب، مصر، مكة) والدول الأوربية (فرنسا، بريطانيا، إسبانيا، أمريكا)، كذلك من خلال معاهداته(دي ميشال 1834م والتافنة 1837م ...التي حققت انتصارا ديبلوماسيا نظرا لبعد رؤياه وقراءته الحاضر واستشرافه المستقبل بروح حضارية وثقافية مسالمة، حتى قال عنه تشرشل: **"إن عبد القادر المحارب والخطيب والديبلوماسي ورجل الدولة والمشرع تكمن أسرار قوته في عظمته العقلية. فرسائله وخطبه وأحاديثه كلها تحمل طابعها الخاص في الجدة والأصالة. والحق أن بيانه الطبيعي الذي أغنته الدراسة وأنضجه التفكير وارتقت به مهابته الفذة كان له وقع السحر"**[19]. هذا وقد كان الأمير محاور صلب وفي الوقت نفسه حذر، حريص كل الحرص على أهدافه وطموحات شعبه، مدرك لنوايا فرنسا البعيدة في الاستعمار، واع بخططها الملتوية لاستغلال الأراضي، فهو القائل مخاطبا بيجو:**" دولتكم تدعي أنها أول دولة في العالم، تحب الإنصاف وتستعمله وتحافظ على ميزان العدل وتحكم به، ففعلها هذا يكذب دعواها، ويبطل مدعاها، وأنتم وغيركم من رجالها نراكم دائما تساعدونها على الاعتداء والاغتصاب**

وتبذلون أنفسكم في ذلك ابتغاء مرضاتها''[20]. من هنا يتجلى وعي الأمير عبد القادر وإدراكه أنّ مقاومة الاحتلال الفرنسي والانتصار عليه إنّما هو سبيل إلى جانب أهداف أخرى كبناء مجتمع يكون فيه الإنسان سيد نفسه بناءً من كافة الجوانب داخليا وخارجيا حتى لا يوضع موضع ضعف وقصور إزاء التحديات المحيطة به فيلفي نفسه في حالة عجز ثقافي و وهن حضاري، يسلبه القدرة على رد الخطوب فينحني لها مجبرا، فتكون مسألة القابلية للسيطرة والاحتلال بذلك يسيرة.

2. المقاومة الفكرية، الثقافية والأدبية:

مارس الأمير عبد القادر إلى جانب مقاومته العسكرية والسياسية مقاومة فكرية ثقافية شهد لها العالم أجمع، عظّمها الآخر وجعل منها مضرب مثل في التنوير الفكري، والحوار الثقافي والحضاري القائم عل الحسّ الديني المتسامح، وقد نال الأمير حظوة العالم العارف الحصيف الموسوعي التكوين، وهو الذي قال فيه شكيب أرسلان: **''وكان المرحوم عبد القادر متضلعا من العلم والأدب، سامي الفكرة، راسخ القدم في التصوف، لا يكتفي به نظرا حتى يمارسه عملا، ولا يحن إليه شوقا حتى يعرفه ذوقا، وله في التصوف كتاب أسماه (المواقف). فهو في هذا المشرب من الأفراد الأفذاذ. وربما لا يوجد نظيره في المتأخرين كتاب أسماه: (ذكرى الغافل وتنبيه الجاهل) في الحكمة والشريعة، وقد ذكر المؤرخون الإفرنجة أنّ ملكته العلمية (والدينية) كانتا من أكبر أعوانه على تأسيس الحكومة التي أسسها. وأنّه كان ينال باللسان ما قد يعجز عنه بالسنان''**[21]، ذلك أنّه اتّخذ من ثلاثية (الفكر، العلم، القلم) ميزات لابد أن تتوافر في الإنسان الخلاق للانطلاق نحو أهداف أسمى وأرقى، نحو معركة البناء والتشييد، بناء الذات التي يراهن عليها في عملية الإصلاح؛ فالإنسان المفكر العاقل الحامل لمشعل العلم والمعرفة من كلّ طرف، يخلد تاريخه ويسجل مجده مقصدا نبيلا لكل مقتد، ولعلّ مذكرات الأمير السياسية والعسكرية وسجلاته الفكرية والثقافية والأدبية باقٍ أثرها ما بقيت ذكراه.

إنّ المستقرئ لهذه الآثار يلمس بعدا رؤيويا للعالم المتحقق بالفعل احتضنته هذه المقاومات الخطابية المختلفة، لتعكس لنا فضاءات الوعي المتشكل في الذات القادرية وفي الكيانات الجمعية الملهمة، وحتى في الآخر المختلف الذي كان المهماز الموقظ من الغفلة إلى الصحوة، ثم للحياة والطبيعة والعالم.

تتجلى مظاهر المقاومة الفكرية والثقافية في حرص الأمير على أداء رسالة المعلم التي تمثّلها في كامل مراحل حياته دون هوادة، ونظرا لعِظمها اشتغل على تنظيم سير المراحل التعليمية، ذلك أنّه يرى أن **''لا شيء**

أقبح في الإنسان من إهمال نفسيته وتعريتها من فضيلة طلب العلم"[22]، ونشر الثقافة والوعي الديني في الأوساط الاجتماعية، من هنا أيضا تأتي رسالة شعره للذود عن الوطن، وشحذ الهمم وشحن النفوس إلى السير في الصفوف الأولى من الجهاد لمقاومة المحتل الغاصب، لدرء أهواله ومخاطره ومفاسده، وقد وجد الأمير في **"الوزن والسجع والجناس ما يبحث عنه في السيف والرمح والبندقية من وسائل لردع المظالم واسترجاع الحقيقة المغتصبة في الميدان وبث روح العدل وإقرار السلم في العالم "**[23]، وحسبه في هذا المقام أنّه يعدّ أول من حمل راية الالتزام في الشعر في الجزائر، والشعر الحماسي والقريض الحربي والأدبي على وجه الخصوص، فكانت الكلمة بمثابة رصاصة أشد من وقع الحسام المهند، بمثابة النص المقاوم والقوة المضادة التي لا تقهر.

انطلق الشعر مع الأمير إحيائيا إصلاحيا مقاوما مشبعا بقيم الروح الدينية والوطنية، وتمجيد البطولة والاعتزاز بالشّخصية القومية والعزّة العربية، والتركيز على القضايا الإصلاحية، وقد دأب الأمير عبد القادر في أغلب أشعاره على أن **"يتطلع بعضها الآخر إلى أفاق العصر الحديث"**[24]، خاصة تلك التي تمتد إلى حد البوح بمعارج الروح ومدارج العرفان وتبحث في القضايا الفلسفية اللاّهوتية التي ارتبطت بموضوعة الوجود، هذا وقد جمع أشعاره أغراض وقضايا سابقة لعصرها، ثائرة على الجمود الركود، وتدعو إلى ضرورة الوعي بالتغيير، خاصة ما تعلّق بشعر الفخر والحماسة الذي من أهم قصائده "أبونا رسول الله" و"بنا افتخر الزمان" التي جاءت على البحر الوافر؛ وفيهما يفتخر بنسبه الشّريف الذي يعود لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، "بي يحتمي جيشي"...، وفيها تتجلّى طبيعته الفروسية وثقافته الإسلامية، إذ لا تخلو قصيدة فخرية من صور التأثّر بفحول الشّعر العربي القديم ويقاسمهم الشجاعة والبطولة وخبرتهم، واستثمارها في المقاومة الشّعبية وتفعيلها سياسيا، ثم أنها تعكس رؤية لشخصية قوية، متينة المواقف، إنسانية، معتدة بنفسها، هذا الاعتداد **"هو الذي أعانه على مواجهة تلك الحروب الطاحنة، والأهوال والأخطار مدة كفاحه...والاعتداد بالنفس من ضروب القوى المعنوية التي تستفز المرء على أن يتقدم إلى الأمام بشرط أن يصاحب ذلك النوع من الحكمة التي تكيف الإنسان لتجعل من عظيما بحق، يستحق لقب الزعامة بنوعيها: الحسي، والمعنوي**[25]:

وإنـا بنـو حـرب العـوان بهـا لنـا سـرور إذا قـامت وشـانئنـا عـوى

وكـم من مفازات يضل بها القطا قطعت بها والذئب من هـولهـا عـوى

فإن شئت علمـا تلقني خير عـالم وفي الروع أخباري –غدت– توهن القوى

ونحن سقينا البيض في كـل معـرك دماء العـــدا والسمر أسعــرت الجــوى

ألم تر في (خنق النطاح) نطاحنا غداة التقينا كـــم شجاع لهم لـــوى؟!![26]

ويعدّ **التّصوف** من أهمّ الموضوعات على الإطلاق، والتي اشتهر بها الأمير شعراً ونثراً متأثراً في ذلك بالعالم الجليل "محي الدين بن عربي"، ومن قصائده في التّصوّف نجد "أستاذ الصوفي" و"مسكين لم يذق طعم الهوى"، و"هو الباطن هو الظاهر"، و"أنا الحب والمحبوب والحب جملة"، ويذكر أن فترة ما بعد أسره تعتبر من أهم مراحل تصوفه، **"ففيها ارتقى في معارج الأسرار الإلهية سيما فترة مكوثه في البقاع المقدسة حاجا، مقبلا على العبادة وجهاد النفس والخلوة، والتقائه بالشيخ العارف بالله محمد الفاسي شيخ الطريقة الشاذلية الذي تتلمذ عليه، وشرب عنه الطريقة"[27]**، غير أنّه إذا تمعننا في شعر الأمير وجدناه تجاوز الكثير من الصّور التّقليدية في عصره، إذ ترنو الكثير من أشعاره إلى مواكبة روح عصره، نظراً لما تحتويه من تجديد في قضايا فكرية، فلسفية داخل النسيج الفني من ذلك بحثه في مسائل الوجود، وهذا التّطور التدريجي على مستوى القضايا لازمه تطوّر في مستوى البنية الشّعرية، على الرّغم من غياب التنظيرات النّقدية بخصوصه، إلاّ أنّ صدق التّجربة الشّعرية رافقه سحر في البلاغة الفنية، إذ يشهد للأمير انتخابه لألفاظ مألوفه، جزلة، استطاع استثمارها ببعثها للحياة من جديد، في حين نحا بالشّعر الصوفي إلى صور راقيّة المستوى، ولعلّ ذلك يعود لواقع تجاربه، وارتكاز الشّعر الصوفي على الإيحاءات والرموز التي توحي بالفكرة ولا تصرّح بها، في صورة أقرب إلى الوجد الرومانسي، من بين الموضوعات الصوفية لديه ما يسمى بوحدة الوجود الدالة على المنزلة التي بلغها الأمير في حقل التصوف:

عن الحبّ مالي كلما رمت سلونا أرى حشو أحشائي من الشوق نيرانا؟

لواعــج لو أنّ البحــار جميعهــا صببن لكــان الحرّ أضــاف مـا كان

تئــجّ إذا ما نجد هبّ نسيمهــا وتذكــو بـأرواح تنـاوح ألــوانـــا

فلــو أنّ مـاء الأرض طرّا شربته لمــا نالـني ريّ ولازلت ضمــآنـــا[28]

وهناك أيضا **المساجلات** ومن بين قصائدها نجد "أهلا بالحبيب"، و"نعمة الشفاء"، و"يا قرة العين"، و"زكاة العلم"، وقصائد **المناسبات** التي كانت امتداداً للرؤية الصّوفية، ومن بين قصائدها نجد" يارسول الله"، و" أعرني قلبا"، و"الناعورة العاشقة"، و"وليمة الله".

الناظر بعين الدقة في ما كتبه الأمير من أعمال أدبية يجدها **"تتميز بالعمق الفكري، سواء في مناقشاته أو في ردوده، بتوضيح مفاهيم الأشياء، واستنباط الحجج والبراهين، أو في نظرته إلى المشاكل والأمور الاجتماعية أو في فهم الأمور والقضايا الدينية"**[29] والدنيوية والدولية... وفي كل الأحوال فإنّ ما حققه الأمير عبد القادر على مستوى الكتابة عموما التي هي بمثابة نصوص مقاومة للمد الفكري والثقافي الامبريالي، يتجلى فيها وعيه التنويري، وثورته على الذات قبل الآخر الغاصب بضرورة تغيير الراهن الذي يعيشه وشعبه، ولأدل على ذلك عبقريته في طرق أفكار وموضوعات سابقة لزمانه ومكانه وبشهادة الآخر والمعتدي.

ثالثا: إرادة القوة وقوة المواقف

لا تجتمع إرادة القوة إلاّ مع قوة المعرفة التي من امتلكها فقد أوتي خيرا كثيرا، وإرادة القوة عند الأمير نابعة من فكرة الصفاء الروحي والتحلي بالأخلاق الفضيلة، والقيم السامية النابعة من وحي الكتاب والسنة، لذلك ركز الأمير عبد القادر على فكرة السعي إلى بناء إنسان كامل ذاتيا (جهاد النفس) الذي لا يتأتى إلاّ بتكوينه تكوينا علميا، ثقافيا، معرفيا ودينيا صحيحا حتى يكون مؤهلا لمواجهة تحديات العصر، والتعامل مع المواقف بحكمة العارف العالم، ذلك أنّ أحداث الكينونة إنّما هي سجل تاريخي وأثر لفعل الكيانات.

والأمير من موقع اعتبار الإنسان شرف خلافة الله في الأرض، يرى أنّ الأجدى له أن يتمثّل هذا الشرف أفضل تمثيل، فهو وحده المسؤول مسؤولية كاملة عن نفسه وعن مجده وتاريخه، لذلك اعتبر أنّ جهاد العدو لا يكون إلاّ بجهاد النفس بتدريبها على السلوكات الصحيحة والمعاملات الحسنة بهدف تنمية قدراتها لأن تكون أهلا لآداء المهام المنوطة بها ضمن الدوائر المحيطة لها، والتي تتطلب الانخراط ضمن المجموع الإنساني الذي يقتضي ضرورة الفهم والتفاهم والتثاقف بينه، ولعل إدراك الأمير لهذه المسألة يقتضي حاجة هذا الإنسان إلى التواصل مع الآخر في إطار من الوعي الحضاري الذي يستدعي التعقل عند اتخاذ القرارات، ومساءلة الأنا قبل مساءلة الآخر، والأمير في هذا المجال سباق إلى فكرة حوار الحضارات والثقافات والتعايش السلمي وضرورة احترام حق الآخر في الاختلاف، فقد كان بمثابة الجسر على حد تعبير برونو الذي قال عنه: **"بأن يعد جسرا بين الشرق والحداثة، وهو في تعاليمه وشخصيته القدوة يبيّن أن الشرق هو خط الشاقول المتجذر بين الأرض والسماء"**[30]، الذي يذكرنا دائما بمبادئ حقوق الإنسان، وهو الذي سئل عن سبب درئه فتنة المسيحيين الطائفية في دمشق بقوله: "**إنني لم أفعل إلا ما توجبه علي فرائض الدين ولوازم الإنسانية**[31]". إنّ هذه المواقف الإنسانية ومثلها كثيرة في حياة الأمير التي تستدعي منا التوقف عندها لا

لتذكرنا بمبادئ حقوق الإنسان في العالم فحسب، وإنّما هي دعوة صريحة لتمثل مبادئ حوار الحضارات والثقافات والأديان بين الشعوب سعيا لترسيخ قيم المصالحة والتسامح بينها، هذا الايمان الكبير من الأمير للإنسان بأنه قوة فاعلة وخلاقة بإمكانها صناعة تاريخها العام – الذي هو جزء لا يتجزأ من صناعة تاريخها الشخصي– هو ما جعل منه شخصية متجاوزة الحدود والسدود، شخصية إنسانية عالمية بكل المقاييس.

خاتمة:

بناء على ما تقدم يمكن القول بأن جوهر فكر عند الأمير منبني على اعتبار:

– الأمير عبد القادر شخصية عظيمة النشأة، قوية الأركان، متينة البنى، بينية الفكر والثقافة، عالمة، عارفة بمداد الرؤيا ومدارج العرفان، متعدّدة الرؤى، مستشرفة للآفاق، متسامحة مع ذاتها ومع الآخر والعالم والوجود، صانع التاريخ ورائده، رائد التحديث ومؤسس الدولة الجزائرية الحديثة، النموذج الحضاري العالمي الذي كان وما زال يعطي دروسا في العظمة.

– لا يتوقف مفهوم إرادة الذات وحدود القوة عند الأمير عبد القادر على حمل السلاح ومقارعة المحتل لتحرير الأرض، إنّما حقّت له مشروعية المواءمة في القوة مع القلم والكتابة لتحرير الذات من منطلق المعادلة الوظيفية، وأثر كل منهما في توازن الذات والآخر والعالم والوجود.

– الأمير عبد القادر عبقرية نادرة ممتدة في الزمان والمكان، تجلت قوتها في فكره الفلسفي التنويري واستراتيجيته القيادية السياسية والعسكرية، رجل الأهداف والمواقف الإنسانية والحرب والسلام، آمن بأنّ نجاح حركة المقاومة متوقف على مدى انتشار حركة الوعي الفكري والثقافي والأخلاقي الوطني والقومي بين مختلف فئات المجتمع.

– الإنسان جوهر العملية الفكرية التي تعتمل في الذات القادرية، مصدر الإرادة والقوة التي لا تتأتى إلاّ في ظلال الأخلاق الفاضلة والقيم الدينية النبيلة، ثم في معاقل العلم الوارف والمعرفة الخلاقة فهم أساس بناء العالم، لذلك أكد الأمير على بناء الذات وأقرّ بضرورة الاعتداد بمركزيتها ومشروعية الاعتراف بالأنا معادلا فكريا وثقافيا وحضاريا ... للآخر في إطار من التعايش والسلم والتسامح.

المصادر والمراجع:

[1] ممدوح حقي: مقدمة ديوان الأمير عبد القادر، دار اليقظة للتأليف والترجمة والنشر، د ت، دمشق، ص ص: 7، 8.

[2] شارل هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، تر: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، 1974، تونس، ص: 39.

[3]المرجع نفسه، ص :47.

[4]الأمير عبد القادر: ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تحقيق: ممدوح حقي، دار اليقظة العربية، د ط، 1966، بيروت، ص: 36.

[5]جورج الراعي: الدين والدولة في الجزائر: من الأمير عبد القادر...إلى عبد القادر، دار القصبة للنشر، 2008، الجزائر، ص: 75.

[6]ناصر الدين سعيدوني: نظرة حول الوثائق العثمانية بالجزائر ومكانتها في تاريخ الجزائر الحديث، رئاسة الجمهورية، المركز الوطني للدراسات التاريخية، عدد أفريل، 1977، الجزائر، ص: 137.

[7]تركي رابح عمامرة: الأمير عبد القادر– البيئة الثقافية والتربوية التي نشأ فيها وأثرها في تكوين شخصيته– مجلة عالم الفكر، العدد الأول، المجلد الخامس عشر، 1985، الكويت، ص: 235.

[8]المرجع نفسه، ص: 237.

[9]المرجع نفسه، ص: 238.

[10]محمد عبد الرحيم غنيمة: تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، دار الطباعة المغربية، ط1، 1953، تطوان المغرب، ص: 153.

[11] يحي بوعزيز: الأمير عبد القادر –رائد الكفاح الجزائري–، الدار العربية للكتاب، ط3، تونس، 1983، ص : 139.

[12] ممدوح حقي: ديوان الأمير عبد القادر، مصدر سابق، ص ص:6، 53.

[13]شارل هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ص: 148.

[14]نزار أباظة: الأمير عبد القادر الجزائري– العالم المجاهد–، دار الفكر، ط1، دمشق، 1994، ص: 11.

[15] مجاود محمد: الفكر الوطني التحرري عند الأمير عبد القادر، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، عدد خاص، الجزائر، 2012، ص: 18.

[16]ممدوح حقي: ديوان الأمير عبد القادر، مصدر سابق، ص:49.

[17]شارل هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، ص: 189.

[18]صالح خرفي: الأمير عبد القادر –هل يجهل أسرار الحرب...؟–، مجلة المعرفة، العدد 31، دمشق، 1964، ص: 31.

[19]شارل هنري تشرشل: حياة الأمير عبد القادر، مرجع سابق، ص: 149.

[20]صالح خرفي: الأمير عبد القادر –هل يجهل أسرار الحرب...؟–، مرجع سابق، ص: 30.

[21]يحي بوعزيز: الأمير عبد القادر –رائد الكفاح الجزائري–، ص : 133.

[22]الأمير عبد القادر: ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، مصدر سابق، ص: 39.

[23]مذكرات الأمير عبد القادر، تحقيق محمد الصغير بناني، محفوظ سماتي، ومحمد الصالح الحبون، شركة دار الأمة، ط 7، الجزائر، 2010، ص: 29.

[24] ممدوح حقي: ديوان الأمير عبد القادر، مصدر سابق، ص: 33.

[25]يحي بوعزيز: الأمير عبد القادر –رائد الكفاح الجزائري–، ص: 150.

[26]المرجع نفسه، ص ص: 52، 54.

[27] عبد الرزاق بن السبع: الأمير عبد القادر وأدبه، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، السعودية، 2000، ص : 155.

[28]، ممدوح حقي: ديوان الأمير عبد القادر، مصدر سابق، ص : 116.

[29]المرجع نفسه، ص : 361.

[30]برونو إتيين: الأمير عبد القادر الجزائري، تر: ميشيل خوري، دار الفارابي، ط1، لبنان، 1997، ص: 15.

[31]المرجع نفسه، ص: 16.